تأسيس مستوطنة ريشون ليتسيون في فلسطين

تُعدّ ريشون لتسيون، التي تأسست في 31 تموز/يوليو 1882، من أوائل المستعمرات الزراعية التي أقامها مهاجرون يهود أوروبيون في فلسطين خلال بدايات موجة الهجرة اليهودية الأولى. وقد أُنشئت إلى الجنوب الشرقي من مدينة يافا الفلسطينية، على أراضي منطقة عيون قارة.

ويعني اسمها العبري "الأول إلى صهيون"، وهو اسم مستمد من نص توراتي في سفر إشعياء. واكتسبت المستعمرة لاحقًا أهمية رمزية داخل المشروع الصهيوني، بوصفها واحدة من التجارب المبكرة لإنشاء مستوطنات زراعية يهودية دائمة في فلسطين.

خلفية التأسيس

أسست ريشون لتسيون مجموعة من المهاجرين اليهود القادمين من الإمبراطورية الروسية، وكان عدد من مؤسسيها مرتبطين بحركة "أحباء صهيون" التي نشطت في أوروبا الشرقية وشجعت الهجرة والاستيطان الزراعي في فلسطين.

وأقيمت المستعمرة الأولى على نحو 3,340 دونمًا من أراضي عيون قارة، وهي أراضٍ كانت تعود إلى ملاك فلسطينيين محليين، قبل أن تُنقل إلى المجموعة المؤسسة من خلال حاييم أمزلاغ، نائب القنصل البريطاني في يافا. وكانت الأرض تعاني من شح المياه والتربة الرملية، كما افتقر معظم المستوطنين الأوائل إلى الخبرة الزراعية اللازمة.

وبعد أن واجهت المستعمرة صعوبات مالية وزراعية كبيرة في سنواتها الأولى، تلقت دعمًا مباشرًا من البارون إدموند دي روتشيلد، الذي أصبح منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر أحد أبرز الممولين للمستعمرات الزراعية اليهودية الناشئة في فلسطين. وقد ساعد تمويله وإدارته وخبراؤه الزراعيون على استمرار ريشون لتسيون وتوسّع نشاطها الزراعي.

وعلى الرغم من أن ريشون لتسيون أُنشئت في الأساس بوصفها مستعمرة زراعية، فإن أهميتها التاريخية تجاوزت النشاط الزراعي وحده. فقد أصبحت نموذجًا مبكرًا لإنشاء تجمع استيطاني دائم للمهاجرين اليهود الأوروبيين في فلسطين، وأسهمت التجربة التي نشأت فيها وفي مستعمرات مشابهة في تطوير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والمؤسساتية التي استفادت منها الحركة الصهيونية لاحقًا.

الأثر على الفلسطينيين

من المنظور التاريخي الفلسطيني، تمثل ريشون لتسيون إحدى البدايات المبكرة لتحول الأراضي في فلسطين إلى مستعمرات منفصلة أقامها مهاجرون أوروبيون. غير أن المصادر المتاحة عن قطعة الأرض التي أُنشئت عليها المستعمرة سنة 1882 لا توفر دليلًا كافيًا على حدوث طرد مباشر لفلاحين فلسطينيين مقيمين عليها عند تأسيسها، ولذلك ينبغي التمييز بين حالة ريشون لتسيون الأولى وبين حالات أخرى موثقة من الاستحواذ على الأراضي وإخلاء المستأجرين الفلسطينيين في العقود التالية.

ومع توسع الاستيطان الصهيوني في فلسطين، أصبح انتقال الأراضي إلى مؤسسات ومستعمرات استيطانية وما رافقه في عدد من المناطق من فقدان الفلاحين والمستأجرين الفلسطينيين لأراضيهم ومصادر معيشتهم عنصرًا متزايد الأهمية في الصراع على الأرض. وقد أثارت هذه العملية معارضة فلسطينية متنامية منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ومن هذا المنظور، لم تقتصر أهمية ريشون لتسيون على كونها تجمعًا زراعيًا منفردًا، بل كانت جزءًا من مرحلة مبكرة من عملية أوسع لإقامة وجود استيطاني يهودي أوروبي منظم في فلسطين. وجرت هذه العملية في بلد كان سكانه في أواخر القرن التاسع عشر بغالبيتهم الساحقة من العرب الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين، إلى جانب مجتمعات يهودية محلية قديمة كانت قائمة قبل موجات الهجرة الصهيونية الحديثة.

وتحوّلت المستعمرات الزراعية المبكرة، مع مرور الوقت، إلى جزء من بنية اقتصادية ومؤسساتية أوسع. وأسهم التمويل الأوروبي، وشراء الأراضي، وتنظيم الهجرة، وإنشاء المؤسسات الزراعية والاستيطانية في وضع بعض الأسس المادية والتنظيمية التي استفاد منها المشروع الصهيوني في فلسطين خلال العقود التالية، بما كان له آثار بعيدة المدى على الأرض والمجتمع الفلسطينيين.

ريشون لتسيون في السياق الفلسطيني الأوسع

تكتسب ريشون لتسيون أهميتها في التاريخ الفلسطيني، إذن، ليس فقط من تاريخ تأسيسها المبكر، بل من كونها مثالًا على التحول التدريجي الذي بدأت تشهده فلسطين منذ أواخر العهد العثماني. ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع الفلسطيني قائمًا على شبكة واسعة من المدن والقرى والأراضي الزراعية والعلاقات المحلية المرتبطة بالأرض، بدأت تنشأ إلى جانبه مستعمرات جديدة ذات مصادر تمويل خارجية وتنظيم مستقل وأهداف تتجاوز الزراعة إلى بناء وجود دائم ومؤسساتي للمهاجرين اليهود الأوروبيين.

ومع اتساع هذه العملية في العقود اللاحقة، لم تعد مسألة الاستيطان مرتبطة بمستعمرة واحدة أو بصفقة أرض منفردة، بل أصبحت جزءًا من صراع متنامٍ حول ملكية الأرض، والهجرة، والسيطرة السياسية، ومستقبل فلسطين. ومن هنا يمكن النظر إلى ريشون لتسيون باعتبارها إحدى البدايات المبكرة لمسار تاريخي طويل تداخلت فيه الهجرة المنظمة وشراء الأراضي وبناء المؤسسات الاستيطانية مع تصاعد المخاوف الفلسطينية من فقدان الأرض وتغيّر البنية السكانية والسياسية للبلاد.

وقد أصبحت هذه المخاوف أكثر وضوحًا مع توسع المشروع الصهيوني خلال فترة الانتداب البريطاني، ثم أخذت أبعادًا أكثر حدة في العقود التي انتهت بالنكبة الفلسطينية عام 1948، وما رافقها من تهجير واسع للشعب الفلسطيني وتدمير مئات القرى الفلسطينية وتحول جذري في الخريطة السكانية والسياسية لفلسطين. ولذلك تُقرأ نشأة مستعمرات مبكرة مثل ريشون لتسيون، في الذاكرة والتاريخ الفلسطينيين، ضمن سياق أطول من التحولات التي بدأت محدودة في أواخر القرن التاسع عشر، ثم تطورت لاحقًا إلى قضية مركزية تتعلق بالأرض والوجود والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.